



رابطة العالم الإسلامي
المجمع الفقهي الإسلامي

مؤتمر الانحرافات الفكرية بين
حرية التعبير ومحكمات الشريعة

الانحراف العقدي أثاره ونتائجه

معالي الأستاذ الدكتور أحمد بن علي سير المباركي
عضو المجمع الفقهي الإسلامي

أبيض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدٍ ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وبعد:

فلقد امتن الله تبارك وتعالى على هذه الأمة بالاستقامة فقال عز من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢)^(١).

والاستقامة هي: رجاء المسلم يبتهل إلى الله في كل صلواته أن يهبه إياها: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٥).

فالاستقامة منةٌ كبرى ونعمةٌ عظيمةٌ، ونقيضها الانحراف والزيغ عن الطريق السوي مهلكةٌ ووبالٌ على صاحبه وعلى أمته، ومن هنا كانت أهمية هذه الورقة البحثية التي أقدمها لدراسة (الانحراف العقدي: آثاره ونتائجه).

والانحراف مشارب وألوان، وما يعيننا هنا إنما هو «الانحراف العقدي» خاصة.

والحق أنه ليس من السهل تحديد ما هو الفكر المنحرف وما هو الانحراف الفكري (على وجه العموم) للالتباس في هذا المصطلح (الفكر) لاعتبارات عدة، قد تدخل فيها خصوصيات كل مجتمع وطبيعته الثقافية، واختصاص الباحثين، والهدف من التعريف نفسه.

لكن يمكن القول باختصار أن الانحراف الفكري (والفكر المنحرف) هو: ذلك النوع من الفكر الذي يخالف القيم الروحية والأخلاقية والحضارية

(١) انظر: ابن فارس: مقاييس اللغة ٢/ ٤٢، ابن منظور: لسان العرب ٩/ ٤٢، مجمع اللغة العربية (القاهرة): المعجم الوسيط ص ١٦٧ (مادة حرف).

للمجتمع، ويخالف الضمير المجتمعي، وأهم من هذا كله هو ذلك النوع من الفكر الذي يخالف المنطق والتفكير السليم، ويؤدي إلى ضرب وتفكك وحدة كيان المجتمع^(١).

فإذا كان بحثنا يتعلق بالانحراف الفكري في بلادنا، فعلينا أن نراعي أن المعايير المرتبط بها الفكر هنا هي معايير الإسلام. ومن هنا يكون المدخل لبيان معايير الانحراف في الإسلام.

معايير الانحراف في الإسلام:

للإسلام نظراته المتميزة في تأكيد السلوك السوي وتحديد انحراف الأفراد والجماعات، إذ وضع منظومة متسقة من القيم والمعايير الفردية والاجتماعية تتلاءم مع فطرة الإنسان وسنن الحياة، وتتآزر مع النظم الاجتماعية؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه: ١٢٣) مما يجعل هذه المنظومة القِيَمِيَّة هي المعيار الذي يصلح بل يجب أن ترد إليه أي منظومة قِيَمِيَّة أخرى لتعرف مدى قربها من الصواب أو بُعدها عنه؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣).

ومن ثم فإن معايير الانحراف في الإسلام تقوم على الابتعاد - بدرجاته المختلفة - عن منظومة القيم المتميزة التي جاء بها الإسلام، ويمكن من استقراء نصوص القرآن والسنة استخلاص الصور الأساس للانحراف، وهي تتركز حول البعد عن منهج الله المتمثل في الأوامر والنواهي؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤).

وقال ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ

نَبِيِّهِ»^(٢).

(١) د. أحسن مبارك طالب: الأسرة ودورها في وقاية أبنائها من الانحراف الفكري ص ١٣٢.

(٢) رواه مالك في الموطأ، (كتاب) القدر، باب النهي عن القول بالقدر.

مظاهر الانحراف الفكري وأسبابه:

الانحراف الفكري معنى واسع جداً يبدأ بالعقلانية بالمعنى الذي يعاند النص ويحاده، وينتهي بالإلحاد بالمعنى الذي ينكر الخالق موجد الكون ومدبره، وبينهما أهواء كثيرة لا تنتهي... وما قاد إلى طريق المهالك هذا إلا العقل - في غير بصيرة من نور الشرع - حين وُضع في غير موضعه وتجاوز حدوده!

وقد ظلت مسألة تحكيم العقل مدخلاً لأهواء لا تنحصر؛ فتت الملة لفرق وطوائف عبر التاريخ الإسلامي، وجرأتهم على الخروج عن نصوص الوحي، إما بردها من الأصل أو بأعمالها على أوهي مراتب الظن الذي ترده أدني معارضة عقلية عندهم، لا يستبينون فيها وجه تعليل لأحكام الشرع ومقاصده ..

يقول ابن القيم:

(كل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحکم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحکم هلاكه، وفي أمة إلا فسد أمرها أتم فساد، فلا إله إلا الله كم نفي بهذه الآراء من حق، وأثبت بها من باطل، وأميت بها من هدى، وأحيي بها من ضلالة، وكم هدم بها من معقل الإيمان وعمر بها من دين... وأكثر أصحاب الجحيم هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل... وهم الذين يقولون يوم القيامة: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ..)
(الملك: ١٠)^(١).

ولا يعني ذلك عدم إعمال العقل مع دليل الوحي، فمنهج الإسلام وسط بين الغالي والجافي في كل باب....

يقول الشاطبي:

(إذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية فعلى شرط أن يتقدم النقل

(١) إعلام الموقعين (١/٧٣).

فيكون متبوعاً ويتأخر العقل فيكون تابعاً، فلا يسرح العقل في مجال النظر إلا بقدر ما يسرحه النقل^(١)، ويقول: (والعقل إنما ينظر من وراء الشرع)^(٢).

وإنما الغرض أن ننفي أن يكون للنقل معارضة صريحة مع عقل صريح، أو أن يكون الوحي قد ترك أمراً من جليل أمور الناس لأهواء الخلق، حتى يقال إن العقل يستقل بها لم يأت به شرع بوجه من الوجه في مسائل الملة والدين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ما تنازع فيه الناس، فوجدت ما خالف النصوص الصريحة شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع... ونحن نعلم أن الرسل لا يُخبرون بمحالات العقول، بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته)^(٣).

ويقول الغزالي:

(اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل فالعقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس... وأيضاً فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر. فلهذا قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ (المائدة). وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمدده، فما لم يكن زيت لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت، وعلى هذا نبه الله سبحانه بقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

(١) الموافقات: ١ / ٨٧.

(٢) المرجع السابق: ١ / ٣٨.

(٣) درء التعارض [١ / ٨١].

فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضان، بل متحدان).

ويقول الأستاذ عبدالوهاب المسيري في هذا الباب: (العقل لا يشع نوراً، ولكنه موصل جيد للنور والظلام)^(١).

لقد أدى تجاوز العقل لحدوده إلى انحرافٍ فكري خطير - كما قدمنا - بدأ بالعقلانية، وانتهى بالإلحاد، وبينهما أهواء كثيرة لا تنتهي... ولقد كان أشد هذه المهالك هو الإلحاد حيث تفسى - بكل أسف - فيما حولنا تفسياً بيناً، أقلق المصلحين:

والإلحاد ظاهرة تقع في بعض الأزمان، وفي بعض الأمكنة، ولها أسباب ومجالات متعددة وصور مختلفة، وما يعيننا هنا هو الكلام في آثاره ونتائجه على الأمن والمجتمع.

وقبل ذلك يحسن بنا أن نذكر معنى الإلحاد، ثم نذكر آثاره.

تحرير مفهوم الإلحاد: الإلحاد في أصل اللغة: الميل عن الاستقامة، ولذا يُطلق على معانٍ عديدة، كما ذكر ابن فارس^(٢) وغيره من أصحاب المعاجم اللغوية.

وقد جاء ذكر الإلحاد في القرآن في ثلاثة مواضع:

١- ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥).

٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت: ٤٠).

(١) ينظر: فكر حركة الاستنارة وتناقضاته، ص ٥٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٢٣٦/٥.

أما معنى الإلحاد في هذه الآيات فقد جاء في (التحرير والتنوير) لابن عاشور^(١):

(الإلحاد: الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، وإلى هذا المعنى ترجع مشتقاته كلها. ولما كان وسط الشيء يُشبه به الحق والصواب استتبع ذلك تشبيه العدول عن الحق إلى الباطل بالإلحاد، فأطلق الإلحاد على الكفر والإفساد). وهذا المعنى العام للإلحاد هو المقصود في بحثنا هنا.

ففي هذا العصر كثرت الانحرافات العقدية المخالفة للشريعة الإسلامية، سواء كانت الانحرافات جذرية أو في بعض جوانبها، وصارت هذه الانحرافات تتسمي بأسماء مختلفة حسب انتماءاتها الفكرية والثقافية، فظهرت أسماء مثل: العلمانية والليبرالية والحدثة... إلخ، بل أصبح بعض الأفراد ينحو منحى خاصاً له في الطعن في الدين في وسائل الإعلام المختلفة الحديثة المقروءة والمسموعة والمرئية وإن لم يصرح باتتمائه إلى فكر مسمى بعينه، فصار لهذه الأطروحات والكتابات متابع، وترتب عليها آثار في «الانحراف الفكري العقدي الإلحادي» الذي أصبح يجاهر به بعض الناس في وسائل الإعلام المختلفة:

١- تشكيكاً في الدين.

٢- وتقويضاً للأمن والاستقرار الاجتماعي والسياسي.

أولاً: مظاهر الانحراف الفكري:

(١) رفض الوحي مصدراً معصوماً للتلقي في كل شؤون الحياة:

دين الإسلام مبنيٌّ على الوحي، سواء كان قرآناً أو سنة، وهما الحَكَم في كل نزاع يحصل بين الناس سواء في الأخبار، فيجب تصديقها، أو الأوامر والنواهي فيجب الانقياد لها، وهذا أصل الإيمان:

(١) ٣٦٤ / ٨

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكِّمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ١٠).
وقال جلا وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

ونصوص القرآن والسنة في تقرير هذا الأصل الأصيل في دين الإسلام كثيرة جداً، ولذا صار من البدهيات التي لا يتطرق إليها الشك عند أي مسلم... ولكن الملحدون من الكتّاب في هذا العصر صاروا يعمدون إلى زعزعة هذا الأصل عند المسلمين في كتابات متنوعة، عبر المقالات، أو الكتب، أو المقابلات الإعلامية في سياق طرح شبهات أو مسوغات للخروج من الخضوع لنصوص الوحي المعصوم، زعماً منهم أنها تراث ومقولات تاريخية خاضعة لظروف خاصة لا يصح تعميمها، وأن الأنظار مختلفة في تفسيرها فلا بد من تفسيرها من جديد، وهو ما سموه بإعادة قراءة النص أي: القرآن والسنة، فظهرت دراسات تحمل أسماء ومصطلحات مثل: التراث والحداثة، ونقد العقل الديني، والأسطورة والتراث، ونقد الفكر الديني، ... إلخ.

وكلها تصب في عدم قدسية القرآن والسنة والتعامل معها كأبي منتج بشري قابل للخطأ والنقاش.

وقد تأثر بهذه الطروحات كثير ممن ينتسب للإسلام في بلاد الإسلام، وصار كل شخص منهم يتعامل مع نصوص القرآن والسنة بعدم التسليم، بل يحاكمها إلى فهمه وعقله وذوقه وفكره.

وهذا تيار خطير يقضي على عقيدة الإيمان من أساسها، يُبقي الإنسان بلا دين، ولا مرجعية معصومة يأوي إليها ويعتمد عليها. وإذا فقد المجتمع المسلم الاعتصام بالمرجعية المعصومة: (القرآن والسنة) لا تسئل بعد ذلك عن التخبط في ظلمات الضلالات والأفكار والمبادئ:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وقال سبحانه لنيبه ﷺ: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٤٥).

وقال سبحانه وتعالى مبيناً أن عدم اتباع الرسول ﷺ منشؤه اتباع الأهواء: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَحْيُوا لَكَ فاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠).

قال الراغب الأصبهاني في (المفردات) في فائدة جمع الأهواء في هذه الآيات: «فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيها على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر، ثم هوى كل واحد لا يتناهى، فإذا اتبع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة»^(١).

وهذا حق، فإذا نظرت في المجتمع الإسلامي اليوم رأيت الموجات الفكرية المنحرفة وكثرة الدعاة لها؛ فهذا تيار يرى أن الدين يجب أن يكون خاصاً بين الإنسان وربه، لا يتجاوز مكان العبادة كالمسجد، وأما سائر أمور الحياة فلا علاقة للدين بها، فالإنسان هو الذي يرسم قانونها ويحدد حقوقها وواجباتها، وذاك تيار آخر يرى الحرية المطلقة للفرد، فلا تحريم ولا قيود على تصرفاته، فلا مجال عنده لاعتقاد المحرمات؛ لأن ذلك يمس حرية الفرد، ولا مجال للجزم بصحة دين أو مبدأ أو بطلانه؛ لأن في ذلك مصادرة لآراء الآخرين،... وهكذا في ضلالات لا تتناهى.

(١) ص ٥٤٨.

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال:

(ويكفيك دليلاً على فساد قول هؤلاء: إنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل، بل منهم من يزعم أن العقل جوز أو أوجب ما يدعي الآخر أن العقل أحاله.

فيا ليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة؟ فرضي الله عن الإمام مالك بن أنس حيث قال: «أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هؤلاء»^(١).

والحاصل أن: الإلحاد يسعى في زعزعة مصادر المعرفة والعلم عند المسلم باستبعاد الوحي أو تهميشه، وجعله تابعاً لغيره من المصادر.

(٢) ذهاب القيم والأخلاق أو تخلخلهما:

وذلك أن الفطرة السليمة والدين الصحيح الذي أنزله الله على رسوله ﷺ، كل ذلك يدعو إلى الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة من فعل الخيرات، وترك الشرور، ونفع الخلق، والصدق، والأمانة، والعدل، والعفة، والطهارة، وإعانة المحتاجين، وتفريج كرب المكروبين، إلى غير ذلك من الأخلاق والحقوق التي دعت إليها الفطرة وأكدتها الشريعة الإلهية، لكن الإلحاد بعكس ذلك، فإنه لما هدم الفطرة والشريعة قضى على منبع وأساس القيم والأخلاق، ولم تبق إلا النفس الأمارة، التي تأمر بالسوء والفحشاء، ويكاد ينعدم فيها الالتزام بالأخلاق الشرعية، والقيم الفاضلة، والاحتساب، والإيثار، ومحبة الخير للغير، وإن وجد شيء من ذلك عند أهل الإلحاد فهو لأسباب اقتضتها من النفع والمصلحة العاجلة، لا قناعة بمبدأ الأخلاق وأهميتها على الإطلاق.

قال الشيخ محمد الخضر حسين:

(وإذا وجدت في زائغي العقيدة من يتحدث عن الأخلاق، ويوهم الناس أن

(١) الفتوى الحموية ص: ١٢.

الأخلاق تكفي في استقامة السيرة، والاحتفاظ بالعفاف، فإن ذلك كله رياء ونفاق!! نعم، للأخلاق أثر في تقليل الشر، ولكنها لا تأتي بأثر عظيم في انتظام حال الاجتماع، إلا حينما تسير تحت مراقبة عقيدة دينية ثابتة^(١).
يقول بعض الباحثين الغربيين عن موقف مذهب التطورية الملحد من الأخلاق:

(لقد نجحت الدارونية - وهو مذهب إلهادي معروف - أو تأويلاتها الطبيعية في قلب ميزان الأخلاق رأساً على عقب، ووفرت الأساس العلمي لهتلر وأتباعه لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم بأن أشجع الجرائم العالمية كانت بالحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة)^(٢).

وأظهر من ذلك كله مذهب فلسفة الإلحاد في الأزمان المتأخرة، الفيلسوف الألماني « نيتشه»، وهو الذي انبثقت من آرائه كثير من الفلسفات الملحدة اليوم في الغرب، فيما بات يعرف بعصر الحداثة وما بعد الحداثة، يرى في أخلاق التسامح والرحمة والمواساة والعطف، أوصاف تسف من مكانة الإنسان، وكان يسميها بأخلاق العبيد، ويرى أن البطش والقوة والقهر والنفي وإعدام الفقير والمسكين والضعيف وذوي العاهات من المجتمعات هي التي تخدم الإنسانية في مسيرتها نحو الرفاه والتقدم.. وهو ما انعكس في فلسفة الغرب المعاصر في نظرتهم وتعاملهم بما يعرف بالعالم الثالث عندهم، حين استبدوا بأمره وسلطوا عليه الحروب بذرائع واهية وحيل خبيثة...

يقول عبد الوهاب المسيري:

(حررت كثير من المجتمعات العلمانية الأخلاق من هيمنة علماء الدين، ولكنها في ذات الوقت أخضعتها لعلماء النفس والاجتماع والهندسة الاجتماعية والوراثية وشركات الإعلان التلفزيونية ومجلات أخبار النجوم وفضائحهم

(١) الدعوة إلى الإصلاح ص ٤٥٩.

(٢) ريتشارد أيكارت من كتابه (من دارون إلى هتلر) ص: ٢١٥.

وصناعة الإباحية واللذة) ويقول: (الحداثة كما عرفها أحدهم هي القدرة على تغيير القيم بعد إشعار قصير)^(١).

وتقوم على ذلك شاهدة عقلائهم ومفكرهم الكبار، الذين يستبقون الوقوع بتأملات أثبت الزمان صدق حدسهم فيها، ومنهم العالم الطبيب والمفكر الغربي «ألكسس كاريل» يقول «العقاد» عنه وعن كتابه: «الإنسان ذلك المجهول» (وقد جاء كتاب الإنسان المجهول في إبانته فتجاوبت به الأندية العلمية والدينية سنوات، وقيل: إن وطأته على مذاهب الإنكار قد حملت دعائها على تطويقه بسد خفي من المصادرة، فوقفت نشره عند حد محدود) وقال أيضاً: (وهو في بابه أجراً كتاب كتبه عالم باسم الطب والعلم في مسائل العقيدة والروح)^(٢).

يقول ألكسس كاريل في كتابه ذلك:

(إننا قوم تعساء؛ لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً.. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي، على وجه الدقة: الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنها لا تدرك ذلك، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها)^(٣).

(٣) الانغماس في الفسق والفجور:

من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر حجزه ذلك عن ارتكاب الخبائث والولوغ في مستنقعات الرذائل، وكلما قوي الخوف من الله وخشيته عند الإنسان ازداد بغضاً للكفر والفسوق والعصيان، وكلما خف هذا الجانب أو انعدم عند الإنسان زاد انهماكه في الفسوق والفجور، بل وقد يكون من الراعين لها الساعين في الأرض فساداً، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ

(١) ينظر: فكر حركة الاستنارة وتناقضاته، ص ٥٤.

(٢) ينظر: موسوعة العقاد: ١١/٤٦١-٤٦٢.

(٣) ينظر: ألكسس كاريل: الإنسان ذلك المجهول: ص ٤٢.

أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿النساء: ٢٧﴾.

قال مجاهد في تفسيرها^(١): ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ قال: «الزنا» ﴿أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ قال: «يزني أهل الإسلام كما يزنون». قال: هي كهيئة ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم: ٩).

والآية ليست مقصورة على الزنا فقط، بل هي عامة في كل من يدعو إلى فسق وفجور وباطل، كما قال الإمام ابن جرير في تفسيره عند هذه الآية: (معنى ذلك: ويريد الذين يتبعون شهوات أنفسهم من أهل الباطل وطلاب الزنا ونكاح الأخوات من الآباء وغير ذلك مما حرمه الله أن تميلوا عن الحق وعمّا أذن الله لكم فيه، فَتَجْرُوا عن طاعته إلى معصيته، وتكونوا أمثالهم في اتباع شهوات أنفسكم فيما حرم الله، وترك طاعته ميلاً عظيماً... وإذا كان ذلك كذلك كان داخلياً في الذين يتبعون الشهوات اليهود والنصارى والزناة، كل متبع باطلاً؛ لأنه: كلُّ متبع ما نهاه الله عنه فمتبع شهوة نفسه)^(٢).

وقد توعد الله جل وعلا الذين يجنون إشاعة الفاحشة بين المسلمين لما في ذلك من تقوية جانب الفسقة وأهل الفجور والإباحين، توعد الله هؤلاء بالعذاب الأليم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩). ومحنة الفاحشة تشمل جميع الوسائل المؤدية إليها؛ فتكون بالقلب وبالجوارح وباللسان، وإقرارها والسكوت عنها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«... وهذا لمن يجب ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة أو يخبر بها محبة لوقوعها في المؤمنين، إما حسداً أو بغضاً، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها، وكلاها محبة للفاحشة

(١) تفسير ابن جرير ٦/٦٢٢.

(٢) السابق ٦/٦٢٣.

وبغضاً للذين آمنوا، فكل من أحب فعلها ذكرها... فأهل المعاصي كثيرون في العالم، بل هم أكثر...، وفي النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولاً وعملاً ما لا يعلمه إلا الله، وأهلها يدعون الناس إليها، ويقهرون من يعيهم، ويزينونها لمن يطيعهم، فهم أعداء الرسل وأندادهم، فرسل الله يدعون الناس إلى طاعة الله، ويأمرونهم بها بالرغبة والرغبة، ويجاهدون عليها، وينهونهم عن معاصي الله، ويحذرونهم منها، بالرغبة والرغبة، ويجاهدون من يفعلها، وهؤلاء يدعون الناس إلى معصية الله، ويأمرونهم بها بالرغبة والرغبة قولاً وفعلًا ويجاهدون على ذلك»^(١).

فالملاحدون داخلون في دعاة الشر والفساد والذيلة، كل بحسب انحرافه، والواقع أكبر شاهد على استهانتهم في ركوب المحرمات، بل والدعوة إليها، والتهوين من الوقوع فيها، سواء كان ذلك بالكتب أو بالروايات، أو القصص، أو قنوات التلفزة، أو عن طريق تفعيل جوانب الفسق والفجور بالتوصل إلى ذوي النفوذ في بلاد المسلمين، وإغراق المجتمع بوسائل هذه القاذورات، وحمايتها بقانون أو بقوة نفوذ.

وموجز القول أن الإباحية مصاحبة للإلحاد؛ لأن الفطرة قد فسدت، كما أنه لا اعتراف بدينٍ يحلل ويحرم، وهذا من أخطر آثار الإلحاد في المجتمع.

(٤) الإلحاد بوابة الأفكار المنحرفة:

الإلحاد بمفهومه المتنوع لا يجعل للدين هيمنة على تصرفات الإنسان وعقله؛ ولذا فهو يهيم في أودية الأهواء وهو يحسب أنه على شيء، وفي الحقيقة أنه في ضياع وخسارة، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ رُئِيَ لَهُ سُوءٌ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر: ٨)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣)

(١) مجموع الفتاوى ١٥/٣٣٢:٣٣٦.

الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا
(١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا ﴿١٠٦﴾ (الكهف).

وفي ظل الإلحاد تنبت الأفكار المنحرفة، والمذاهب الهدامة، والآراء الباطلة،
وذلك لفقدان الحصانة العقديّة من جهة، وغياب الرادع من جهة أخرى،
فيتقبل بعض أفراد المجتمع هذه الأفكار، ويتشبع بالمفاهيم الباطلة، وينظر
إلى المجتمع نظرة ازدراء واحتقار، وينعدم في قلبه الولاء للإسلام والمسلمين
والبراء من الكفر والكافرين.

ولقد وصل الحال ببعض الكتّاب في المجتمعات الإسلامية إلى أنهم صاروا
ينادون ويدعون إلى مذاهب ونظريات منحرفة، مما هو دخيل على الإسلام
والمسلمين، وذلك من التأثر والمحاكاة للذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر من
يهود ونصارى ولا دينيين وغيرهم من الشرق والغرب. بل كثير من هذه
المذاهب والأهواء تبين زيفها لأصحابها وتجاوزوها منذ أزمان، ومع ذلك يظل
في مجتمع الإسلام من ينادي بها حتى قال الأستاذ العقاد وهو الرجل الذي تقلب
في بداءة فكره وتأليفه في الدعاية لألوان من مذاهب الغرب في الثقافة
والأدب قبل أن يعود ويكتب في مراجعات غير صريحة في أزمان متأخرة من
حياته - فكلامه كلام خبير عرك هذه المذاهب، وعرف حظ دعائها في المجتمع
المسلم - يقول العقاد:

(وليس في الشرق العربي من يعرف هذه المذاهب على بصيرة بها أو عن
استقلال بالرأي والشعور، ولكنهم يلقنونها تلقينا «ببغاوية» أو يتهافتون عليها
ولعاً بكل غريب، وقد تموت المذاهب في الغرب ولها في الشرق دعاة يهتفون لها،
ويترنمون، بها ويشبهون في صيحات الإعجاب بها زميلهم الأصبم الذي قيل في

نوادير الأضحاحيك: أنهم أيقظوه بعد انفضاض السامر، فهب من نومته مصفقاً للمطرب المبدع، بعد سكوته بساعات^(١).

ويقول الأستاذ عبد الوهاب المسيري وهو أيضاً مما لا يخفى على أحد رحلته الفكرية، فقد كان ماركسياً ملحداً، وأحد أعضاء الحزب الشيوعي المصري، ثم كرس معظم حياته في دراسة المذاهب الفكرية الغربية، لا سيما الدراسات الماركسية الناقدة للمذهب الليبرالي الرأسمالي من وجهة نظر اجتماعية وفلسفية، وهو ما عرف بمدرسة فرانكفورت، قبل أن يعود عن علم وبصيرة إلى فسطاط الإيمان كما يقول عن نفسه، يقول عن أتباع هذه المذاهب الغربية في ديار الإسلام: (إن ثمرة قرون طويلة من الاستنارة كانت إلى حد ما مظلمة، ولذا راجع الإنسان الغربي كثيراً من أطروحاته بخصوص الاستنارة بعد أن أدرك بعض جوانبها المظلمة، وتناقضاتها الكامنة، وخطورتها على الإنسان والكون. ومع هذا، يقوم الفكر العلماني العربي بنقل أطروحات الاستنارة من الغرب بكفاءة غير عادية تبعث على الثأوب والملل أحياناً، وعلى الحزن والغم الشديدين أحياناً أخرى، فهو ينقل دون أن يحور أو يعدل أو ينتقد أو يراجع)^(٢).

ويقول أيضاً:

«بعض الإشكاليات التي طرحتها حركة الاستنارة والتي لا يزال بعض المفكرين الغربيين يتأملون فيها ولا يجدون لها إجابة شافية، على عكس دعاة الاستنارة عندنا الذين يبشرون بأفكار الاستنارة بشجاعة بالغة وساذجة قد تدل على طيبة قلوبهم وعقولهم، ولكنها تدل أيضاً على أنهم لم يتأملوا الأمر بما فيه الكفاية من كافة جوانبه»^(٣).

وأنقل هنا حواراً مؤثراً جداً وذا دلالة عميقة لمن أنار الله قلبه، وهو جزء من

(١) الموسوعة: ٤٠٧/١٢.

(٢) ينظر: فكر حركة الاستنارة وتناقضاته، ص ٨.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص ٦١.

حوار أجرته مجلة «الحرس الوطني» مع الأستاذ عبدالرحمن بدوي، تبين عن التجارب التي عادت بها سنون المعاناة في معالجة الفكر الغربي ومذاهبه الفلسفية إلى الكفر بها وإعلان إفلاسها والإقرار بجدارة تعاليم الإسلام عليها، يقول بدوي:

(لا أستطيع أن أعبر عما بداخلي من إحساس الندم الشديد؛ لأنني عادت الإسلام والتراث العربي لأكثر من نصف قرن. أشعر الآن أنني بحاجة إلى من يغسلني بالماء الصافي الرقاق، لكي أعود من جديد مسلماً حقاً. إنني تبت إلى الله وندمت على ما فعلت. وأنوى إن شاء الله - بعد شفائي - أن أكون جندياً للفكر الإسلامي وللدفاع عن الحضارة التي أشادها الآباء والأجداد، والتي سطعت على المشارق والمغرب لقرون وقرون.

المحاور: وهل تبرأت من كتاباتك السابقة عن «الوجودية» و«الزمن الوجودي» وعن كونك رائد الوجودية في الوطن العربي؟!!

بدوي: نعم.. أي عقل ناضج يفكر لا يثبت على حقيقة واحدة، ولكنه يتساءل، ويستفسر، وي طرح أسئلته في كل وقت، ويجدد نشاطه باستمرار، ولهذا فأنا في الفترة الحالية أعيش مرحلة القرب من الله تعالى، والتخلي عن كل ما كتبت من قبل، من آراء تتصادم مع العقيدة والشريعة، ومع الأدب الملتزم بالحق والخير والجمال، فأنا الآن.. هضمت تراثنا الإسلامي قراءة وتذوقاً وتحليلاً وشرحاً، وبدالي أنه لم يتأت لأمة من الأمم مثل هذا الكم الزاخر النفيس من العلم والأدب والفكر والفلسفة لأمة الضاد!!.. كما أني قرأت الأدب والفلسفات الغربية في لغاتها الأم مثل الانجليزية والفرنسية واللاتينية والألمانية والايطالية، وأستطيع أن أقول إن العقل الأوروبي لم ينتج شيئاً يستحق الإشادة والحفاوة مثلما فعل العقل العربي!!.. وتبين لي - في النهاية - الغي من الرشاد، والحق من الضلال).

فهذه العلمانية التي تعني في مفهومها: فصل الدين عن الحياة، سواء النسبة للأمة أو للأفراد، قد انتشرت في بلاد المسلمين انتشار النار في الهشيم،

وأصبح كثير ممن ينتسب إلى الإسلام من كتاب ومثقفين يتبنى هذه الفكرة في المجتمع الإسلامي مع كونها مذهباً يتنافى مع الإسلام من أصله^(١). وهؤلاء يغضون الطرف عن تجارب حية مثل عبدالرحمن بدوي وغيره أثبتوا عدم جدوى هذا الطريق، لكن الأمر كما قال الاستاذ العقاد في مثال (أصم السامر). يقول الأستاذ عبدالوهاب المسيري:

(الفكر العلماني العربي، حينما يقتبس من الغرب، فإنه على ما يبدو يتجاهل حقيقة أن مصطلحات الآخر ليست جزءاً من معجمه اللغوي وحسب، وإنما هي جزء من معجمه الحضاري أيضاً. ففكر الاستنارة وعصر النهضة يوضع عادة في الأدبيات الغربية مقابل عصر الظلمات، الوسيط، ولنا أن نسأل: هل العصر العباسي الأول (الذي يتزامن مع العصور الوسطى المظلمة في الغرب) هو أيضاً عصر ظلمات بالنسبة لنا يتبعه عصر نهضة ثم عصر استنارة؟ إن اقتباس الصور المجازية على هذا النحو أمر فكاهي يدل على أن بعض الإخوة العلمانيين غير عقلانيين في إيمانهم بالغرب حتى إنهم ينساقون للنقل بهذا الشكل دون تحكيم العقل)^(٢).

وهذه الليبرالية وهي مذهب فكري يركز على الحرية الفردية، ويرى احترام استقلال الأفراد، فهو يقوم على تعظيم الإنسان، وأنه مستقل بذاته في إدراكه يتنافى مع الإسلام، ذلك تجد كثيراً ممن ينتسب إلى الإسلام يعتقدونها في المجتمع الإسلامي^(٣).

فهذان مثالان واقعيان من المذاهب المنحرفة التي ظهرت في المجتمع الإسلامي بسبب الإلحاد الذي روج له دعائه بأساليبهم المختلفة، وأدواتهم المتنوعة، فنتج مثل هذه الانحرافات وغيرها بين المسلمين.

(١) ينظر: العلمانية للدكتور سفر الحوالي ص ٢٤.

(٢) ينظر: فكر حركة الاستنارة وتناقضاته ص: ٥.

(٣) ينظر: حقيقة الليبرالية للدكتور عبدالرحيم السلمي ص ١٠١، ٥٧٧.

ومن المؤسف حقاً أن لا تغني تجارب السنين التي أملت بعقول قوية، وعزائم لم تقعد بها قلة حيلة ولا عوز معرفة في الوصول إلى أحكام يحتاج اليوم بعض الناس أن يسلك دربها ولا يتقي عثارها، ليخبرنا غداً بما أخبروا به عن دربة وتجربة أن الإسلام كامل معصوم لا يعوزه منا إلا العمل .. فهل يأمن هؤلاء من عثار عدم العودة والعياذ بالله، وماذا قولهم إذا قبل الله توبتهم في أبواب من الضلال فتحوها على أهل الإسلام وأبنائه من هذه الأهواء ..

يقول ألبرت حوراني عن محمد عبده:

«كان يريد أن يقيم سداً في وجه الاتجاه العلماني يحمي المجتمع الإسلامي من طوفانه، ولكن الذي حدث هو أن هذا السد قد أصبح قنطرة للعلمانية عبرت عليها إلى العالم الإسلامي ؛ لتحتل المواقع واحداً تلو الآخر، ثم جاء فريق من تلاميذ محمد عبده وأتباعه فدفعوا نظريات واتجاهاته إلى أقصى العلمانية»^(١).

ثانياً: أسباب الانحراف العقدي:

(١) الدعوة إلى الحرية في الرأي:

مما قررت الشريعة الإسلامية وكفلته للإنسان: حرية التعبير عن الرأي إذا كانت وفق الضوابط الشرعية، وانعدام هذه الحرية يترتب عليه فساد في الدين والدنيا، ويمكن تصور ما يحيق بالناس بسبب منع التعبير عن الرأي من خلال تصور الحياة دون الواجبات الشرعية العامة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقضاء، والدعوة، والإفتاء، والمناصحة، وتقديم الخبرة في المجالات الحياتية كافة، كالطب، والصناعة، والإدارة، والعلوم البشرية النافعة على تعددها واختلاف أشكالها^(٢).

وحرية التعبير المقبولة أن يراعى فيها جملة من الضوابط التي جاءت بها الشريعة وأهمها:

(١) عن: الإسلام والحضارة الغربية، لمحمد حسين، ص ٧٨-٧٩.

(٢) حقيقة الليبرالية للدكتور عبدالرحيم السلمي ص ٥٤٦.

* الضابط الأول: أن لا يخالف الرأي نصاً من قرآن أو سنة:

وهذا الضابط بدهي طبعي، إذ مقتضى الإسلام والإيمان هو التسليم المطلق لله ورسوله ﷺ في كل ما جاء في القرآن والسنة من أمر أو خبر، والأدلة على هذا الأصل كثيرة جداً، وسبق ذكر شيء منها في الأثر الأول من آثار الإلحاد وهو: (رفض الوحي مصدراً معصوماً للمعرفة)، ولكن أشير في هذا الضابط إلى آيتين من أول سورة الحجرات، هي نص فيما نحن فيه هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات: ١).

قال ابن كثير عن هذه الآية في تفسيره: (هذه آداب أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام. ﴿لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور^(١)).

وقال ابن القيم في (إعلام المرقيين): ﴿لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تقولوا حتى يقول ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويُمضيه، روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة». وروى العوفي عنه قال: «مُها أن يتكلموا بين يدي كلامه».

والقول الجامع في معنى الآية: لا تَعْجَلُوا بقولٍ أو فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢)

فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم

وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه؟! أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم؟! (١).

وقال أيضاً في كلامه على هاتين الآيتين في (الصواعق المرسلّة): (إنه سبحانه نهى المؤمنين أن يتقدموا بين يدي رسوله، وأن يرفعوا أصواتهم فوق صوته، وأن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، وحذرهم من حبوط أعمالهم بذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)﴾ (الحجرات) فإذا كان سبحانه قد نهى عن التقديم بين يديه فأى تقديم أبلغ من تقديم عقله على ما جاء به، قال غير واحد من السلف: ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر، ومعلوم قطعاً أن مَنْ قَدَّمَ عقله أو عقل غيره على ما جاء به فهو أعصى الناس لهذا النبي ﷺ، وأشدّهم تقدماً بين يديه، وإذا كان سبحانه قد نهاهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته فكيف برفع عقولهم فوق كلامه وما جاء به؟! ومن المعلوم قطعاً أنه لم يكن يفعل هذا في عهده إلا الكفار والمنافقون، فهم الذين حكى الله سبحانه عنهم معارضة ما جاء به بعقولهم وآرائهم) (٣).

* الضابط الثاني: أن لا يكون الرأي أو القول فيه ضرر على الغير معتبر شرعاً: وذلك بأن يكون كذباً وبهتاناً، أو طعنًا في الأنساب، أو سخرية واستهزاء، أو إعانة على منكر، أو ظلم لأحد.. وغير ذلك.

والأدلة الشرعية التي تمنع من مثل هذه التصرفات والأذية كثيرة جداً:

- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٨).

- ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور: ١٢).

(١) ٩٤/٢.

(٢) ٩٩٦/٣.

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
(الحجرات: ١١).

ومن صريح الأحاديث في هذا المعنى:

- قول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

- وقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بِالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بِالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(٢).

* الضابط الثالث: مراعاة ما يؤول إليه الرأي:

لا يكفي أن يكون الرأي صحيحاً لكي يقوله الإنسان ويعلنه، بل لابد أن ينظر إلى ما يترتب عليه من النتائج فإن كانت مصالح ظاهرة قاله ونشره، وإن كان سياتر على ذلك مفسد ونتائج سلبية بسبب ظروف طارئة أو أحوال خاصة فإنه يمسك عن إعلانه؛ لأن الشريعة مبناها على مراعاة المصالح ودرء المفسد، والأدلة على هذا الأصل كثيرة جداً، واعتبار النظر في مآلات الأقوال والأفعال معتد به في الشريعة والأدلة على ذلك كثيرة جداً أيضاً:

قال الشاطبي:

(النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإلجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل)^(٣).

(١) رواه البخاري في صحيحه رقم ٦٠١٨، ومسلم في صحيحه ٦٨/١ رقم ٤٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم ٦٤٧٨.

(٣) الموافقات ٥/١٧٧.

وقال أيضاً: (الأدلة الشرعية والاستقراء التام أن المآلات معتبرة في أصل
المشروعية)^(١).

ومن أدلة اعتبار المآلات قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

وحديث معاذ المشهور أن النبي ﷺ قال: «يا معاذ أتدري ما حق الله علي
العباد، وما حق العباد على الله؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم. فإن حق الله علي
العباد: أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا
يشرك به شيئاً. قال: قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم
فيتكلموا»^(٢).

وقال البخاري في «صحيحه» مبوباً على هذا الحديث: [باب مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ
قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا]^(٣).

وأخرج البخاري في (صحيحه) أيضاً عن علي - رضي الله عنه - قال: (حدثوا الناس
بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله)^(٤).

وأخرج مسلم في مقدمة (صحيحه) عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: (ما أنت
بمحدثٍ قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)^(٥).

فهذه الدلائل وغيرها تدل على ضرورة النظر في مآلات الأقوال والأفعال
واعتبارها فعلاً أو تركاً.

*** الضابط الرابع: أن تكون وسيلة التعبير عن الرأي مشروعة:**

إذا كان الرأي صحيحاً ومأمون العاقبة فلا بد أيضاً لإعلانه: أن تكون
وسيلته مشروعة، وموافقة لمقاصد الشريعة، فالوسائل المبتدعة أو المحرمة لا يجوز

(١) المصدر السابق ١٧٩/٥.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٨٥٦، ومسلم ٥٨/١ رقم ٣٠.

(٣) ٢٢٥/١.

(٤) البخاري رقم ١٢٧.

(٥) ٧٦/١.

أن تكون طريقاً لنشر الآراء، ولو كانت الآراء صحيحة سليمة؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، كما هو مقرر في قواعد الشريعة.

قال العز بن عبدالسلام:

(وللوسائل أحكام المقاصد، فالوسيلة إلى أفضل المقاصد هي أفضل الوسائل، والوسيلة إلى أرذل المقاصد هي أرذل الوسائل...)^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(ليس كل سبب نال به الإنسان حاجته يكون مشروعاً ومباحاً، وإنما يكون مشروعاً إذا غلبت مصلحته على مفسدته مما أذن فيه الشرع، ومن هذا الباب: تحريم السحر مع ما له من التأثير وقضاء بعض الحاجات...)^(٢).

وقال ابن القيم:

(لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها إلى غاياتها وارتباطها بها، ووسائل الطاعات والقربات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غاياتها، فوسيلة المقصود تابعة للمقصود، وكلاهما مقصود، لكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل...)^(٣).

هذه هي أهم الضوابط الشرعية للحكم على صحة الرأي وجواز إعلانه ونشره، فإذا توافرت فالشريعة لا تمنع منه، بل قد يكون واجباً أو مستحباً أو مباحاً، بحسب رتبته من الأحكام، فهذه هي حرية الرأي في الإسلام.

وأما الإلحاد ودعاته فإنهم يدعون إلى حرية الرأي بإطلاق؛ لينفذوا منها إلى نشر باطلهم، وعدم مؤاخذتهم في الطعن في الدين، والقصد في أحكامه،

(١) القواعد لابن عبد السلام ١/٧٤.

(٢) مختصر الفتاوى المصرية ص ١٧٤.

(٣) إعلام الموقعين ٤/٥٥٣.

والاستهزاء بالله وآياته وأنبياؤه، والسخرية من العقوبات الشرعية، والدعوة إلى انتهاك المحرمات، وفعل الفجور، وتحسين ذلك في أعين الناس، والتهوين من تحكيم الشريعة، والمطالبة بالقوانين الوضعية التي تضاهي الشريعة الإلهية، ووسائل الإعلام بأنواعها المختلفة شاهدة على كثير من هؤلاء الملحدين^(١).

(٢) فساد الفطرة:

وفساد الفطرة التي فطر الله الناس عليها هي السبب الثاني من أسباب الانحراف العقدي.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: يقول تعالى: فسدد وجهك، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢) وفي الحديث: «إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم».

... وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه: لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ﴾ (آل عمران: ٩٧)، فهذا معنى حسن صحيح.

ويستطرد في النقل فيقول: «وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك،

(١) ينظر في مفهوم الحرية في الشريعة وضوابطها: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام للطاهر بن عاشور ص ١٥٨ - ١٦٧، وفي بعض ما قرره نظر ومناقشة، وكتاب حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها للدكتور عبدالرحيم السلمي ث ٥٤٥-٥٥٨.

ولا تفاوت بين الناس في ذلك، ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد في قوله ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾: «أي: لدين الله»، ثم ذكر الحديث المخرَج في الصحيحين عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠)»^(١).

وقال السعدي في تفسيره لهذه الآية: «وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، ووضع في عقولهم حُسنها واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة، ومن خرج عن هذا الأصل فلعارضٍ عَرَضَ لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله ذلك الذي أمرنا ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيفاً فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠) فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه»^(٢).

فالإنسان مفطور على معرفة ربه وخالقه، ومفطور على أن يعبد، فإن عبَدَ الله تعالى وحده لا شريك له استقامت فطرته، واستنار قلبه، ورأى الأشياء على حقائقها، وإن عبَدَ شيئاً غير الله فلا بد أن تختل مقاييسه، وتنحرف نظرتَه للأشياء على غير الفطرة السليمة، والإلحاد بلا ريب مُنابذ للفطرة، لأنه يُعبَدُ الإنسان

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٣.

(٢) ص ٧٥٢.

غير الله، فإما أن يُعبَّده لمخلوق مثله، أو يعبدّه للمادة أو للشهوة أو للهوى، وكل ذلك في حقيقة الأمر عبادة للشيطان، كما قال الله تعالى مخاطباً جميع من عبدوا غير الله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (يس: ٦٠)؛ فكل أنواع الكفر والمعاصي طاعة للشيطان، وعبادة له.

(٣) فقدان الوازع الديني:

إذا كان الإلحاد يقضي على الفطرة، ولا يؤمن بالله الواحد، ولا بالغيب فهو بذلك لا يربي الضمير، ولا يوجد في نفس الإنسان ما يراقب تصرفاته وأعماله، فينشأ هذا الإنسان عديم الإحساس، قد فقد الوازع الذي يردعه عن ظلم الناس، فمن ظن أنه في مأمن من العقوبة سعى في الأرض فساداً في انتهاك حرمة الأعراس والأموال والدماء غير متحرج، ومعلوم أن مرتكب الجريمة مستيحاً لها أشد ضرراً ممن يرتكبها معتقداً أنه يفعل أمراً محرماً.

ومن هنا فإن الملحد متى منعه الواقع عن بلوغ غايته وهدفه فإنه يقوم بالتغلب على تلك الظروف بالقوة والغلبة، أو بالمكر والحيلة والخديعة؛ لأنه لا حاجز يحجزه عن ذلك فهو لا يخاف رباً ولا يرجو حساباً.

وقد صار عالم اليوم عالم الجريمة والخوف، بسبب غياب الوازع الداخلي في كثير من المجتمعات، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الدول. فكل يوم تبث وسائل الإعلام بجميع أنواعها وأخبار الجرائم البشعة، والتسلط على البشر، والعنف والتشريد، وحوادث السرقة، والسطو، والاعتصاب، والقتل، ما لا يمكن حصره.

فهذه تجارة المخدرات، وهذه تجارة الأعراس ونشر الرذيلة بين الناس، وهذه تجارة الخمر .. كل ذلك للإفساد، ولأجل الكسب المادي من الملايين لبعض التجار، بقطع النظر عن مصلحة الناس وحفظ عقولهم وأعراضهم وأجسادهم.

وانظر إلى مواقف الهيئات العالمية من قضية فلسطين، وتحويل أهلها إلى لاجئين لعشرات السنين، وانظر كذلك إلى مواقفها من قضية مسلمي بورما،

وسوريا وغيرها من القضايا التي تزيد يوماً بعد يوم.

ولعل من أمثلة فقدان الموازن في النفوس عن الجريمة بسبب النظرة الإلحادية: حادثة انقطاع الكهرباء المشهورة عام ١٩٧٧م عن مدينة نيويورك، حيث اكتشف الناس في الصباح: أن آلاف المحلات التجارية والمخازن والبيوت قد مُهِّبَتْ عن آخرها، وأنه اشترك في هذه السرقة الجماعية معظم الناس على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم وأعمارهم، حتى رجال الشرطة أنفسهم المكلفون بالحراسة شاركوا في هذا المهرجان الشائن في السرقة والسطو. ويقدر الخبراء أنه لو استمر انقطاع الكهرباء هكذا أسبوعاً واحداً ولم تتدخل فرق الجيش لخربت المدينة عن آخرها!! فكيف إذا تراخى الأمن في ظل الأزمات أو الحروب؟ لاشك أن هذا المجتمع سيأكل بعضه بعضاً، ولا شك أيضاً أن هذه ثمرات حتمية من ثمار الإلحاد؟^(١)

وقد ظهرت دراسات عديدة في هذا العصر أثبتت أنه كلما وجد التدين قلَّت الجريمة، وكلما قلَّ التدين أو انعدم كثرت الجريمة بحسب ذلك، قال الدكتور صالح الصنيع في دراسته التي بعنوان: (التدين علاج الجريمة)^(٢):

(ولقد خلصت بعض الدراسات الغربية إلى نتيجة تؤكد الأثر الكبير للتدين والتدين في مكافحة الجريمة داخل المجتمعات، مثل دراسة (ستارك stark، وديول Doyle، وكنت Kent) حيث يرون: أن الدين حذف من الدراسات الحديثة للجريمة والجنح؛ لأسباب عديدة أبسطها وأقلها أهمية: الادعاء بعدم توفر المعلومات الكافية، ولكن هناك أسباب أهم، مثل: نقص الرغبة لدى الباحثين في الدراسات الحديثة في دراسة السلوك السوي لدى الأفراد، والتركيز على دراسة الانحرافات عامة، ومنها الجريمة، سبب آخر هو: أن علماء النفس والاجتماع غير مهتمين كثيراً بالتدين، فغاب دوره عن دراساتهم، ويعود الباحثون ليؤكدوا على أن

(١) كتاب الإلحاد لعبدالرحمن عبدالخالق ص ٢٢-٢٣، والدعوة إلى الإصلاح لمحمد الخضر حسين ص ٤٥٩.

(٢) ص ١٤٠.

العيش في هذه الحياة للأمر الديني فقط يسبب للإنسان كثيراً من المتاعب، كما أكد ذلك علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر، الذين يرون: أن الدين يلعب دوراً مركزياً في الحفاظ على النظام الأخلاقي في المجتمع.

وفي خاتمة الدراسة يؤكد الباحثون على: أن المعلومات عن دور الدين في بناء المجتمعات الأمريكية لو توفرت منذ البداية لساعدت منذ زمن طويل على إيضاح الدور الكبير الذي يلعبه الدين في الحد من الأفعال الإجرامية؛ لذلك وجد أن معدلات الجريمة في المدن التي نسب الأفراد المنضمين فيها للكنيسة منخفضة».

(٤) مخالطة الكفار والسفر لبلادهم والتعلم على أيديهم:

انفتح مجال السفر لشبابنا إلى بلاد الكفار للسياحة أو المتعة أو للحاجة للتعليم بغير ضابط، وربما لغير ضرورة في كثير من الأوقات، مع ما توفر في أيديهم من مال وفير، وهو ما أوقع شبابنا فريسة سهلة في أيدي الغرب وآلته وإبهاره فأوقعهم في فتنة شديدة حيث المعاصي والرذائل متاحة بلا رقيب، وهو ما أودى بكثيرين، ثم إن ما يرونه من نظام ونظافة وحسن إدارة في بلاد الكفار أورثهم احتراماً وتقديراً وإعجاباً وانبهاراً بحضارة الغرب، وعلى النقيض أورثهم انكساراً وانحطاطاً في نفوسهم واحتقاراً لما في أيديهم من عقيدة إسلامية نفيسة نقية، كل هذا أضر بشبابنا غاية الضرر، وجره إلى الانحراف الفكري والإلحاد والخروج على طاعة الله.

يضاف إلى ذلك ما يقع لهم في الغرب من مصادقة الشباب من الذكور والإناث من المنحرفين الذين يغرونهم بالانزلاق إلى الفواحش والمسكرات والمخدرات بل والإلحاد والفجور، هذا بالإضافة إلى مناهج التعليم التي يتلقونها هناك، والقائمة على النظرة المادية والفكر الإلحادي المتزيع في ثوب علمي رصين، يخدع الغافل ويورثه مصداقية أمام ناظره، ويسهل عليه ابتلاعه دون وعي لحقيقته.

يقول أحد علماء الغرب الناقدين ومن له خبرة واسعة في نتائج نظام التعليم الغربي في الشرق:

(وإذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم الغربي من غير وازع ما، إن كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة، إذا أردنا أن نحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصر ثقافي فيجب علينا أن نحترس من الجوفكري للمدنية الغربية، ذلك الجو الذي أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجاً مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية، إن تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً إلى تقبل الميل العقلي المصاحب لذلك)^(١).

آثار الانحراف العقدي على الأسرة وعلى المجتمع عامة وعلى الأمن الاجتماعي والسياسي بخاصة:

الانحراف والإلحاد سواء كان برفض الدين جملة أو بتبني أنواع من البدع الاعتقادية أو الفكرية، كل ذلك مما يؤثر في المجتمع الإسلامي تأثيراً بليغاً على أمنه واستقراره، من عدة جوانب:

(أ) حصول التفرق والاختلاف المذموم:

لقد كان أهل الجاهلية الأولى مختلفين متفرقين، لا يجمعهم دين، ولا ينقادون لسلطان، فبعث الله نبيه محمداً ﷺ، فجمعهم على دين واحد، فتألفت القلوب بعد عداوات وبغضاء، واجتمعت بعد تفرق وشتات، قال الله تعالى ممتناً على أهل الإسلام بهذه المنة العظيمة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى

(١) «الإسلام في مفترق الطرق» ص: ٧٣.

شَفَا حُفْرَةَ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴿ (آل عمران: ١٠٣).

وقد نهى الله تعالى عن التفرق والاختلاف في الدين الموضع في العداوة والبغضاء كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٠٥)، وقال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾ (الروم) وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

قال الشاطبي عند هذه الآية:

(فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسبيل: أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع)^(١).

وقد ذم الله تعالى أهل الاختلاف والافتراق فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (البقرة: ١٧٦)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

قال القاضي إسماعيل: (ظاهر القرآن يدل على أن كل من ابتدع في الدين بدعة من الخوارج وغيرهم داخل هذه الآية؛ لأنهم إذا ابتدعوا تجادلوا وتخاصموا وتفرقوا وكانوا شيعاً)^(٢).

وقال ابن جرير في تفسيره لهذه الآية: (إن الله أخبر نبيه ﷺ أنه بريء ممن فارق دينه الحق وفرقه، وكانوا فرقاً فيه وأحزاباً شيعاً، وأنه ليس منهم ولا هم

(١) الاعتصام ١ / ٥٩.

(٢) نقله عنه الشاطبي في الاعتصام ١ / ٦٤.

منه؛ لأن دينه الذي بعثه الله به هو الإسلام دين إبراهيم الحنيفية، كما قال له ربه وأمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١).

فكان من فارق دينه الذي بعثه به ﷺ من مشرك ووثني ويهودي ونصراني ومتحرف مبتدع، قد ابتدع في الدين ما ضل به عن الصراط المستقيم والدين القيم ملة إبراهيم عليه السلام، فهو بريء من محمد ﷺ ومحمد منه بريء وهو داخل في عموم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

وإذا حصل الابتداع والإلحاد في الدين نتج عن ذلك العداوة والبغضاء في المجتمع، وهذا من أعظم ما يوهن المسلمين، ولذا جاءت النصوص في القرآن والسنة محذرة من بالابتداع والإلحاد.

قال الشاطبي بعد ما ذكر جملة من الآيات والأحاديث في هذا الشأن: (وجميع هذه الشواهد تدل على وقوع الافتراق والعداوة عند وقوع الابتداع)^(١).

ويعظم الأمر والإفساد إذا كان لأهل الزيغ والإلحاد قوة، أو تولوا الولايات سواء كانت صغيرة أو كبيرة في المجتمع، فإنهم يبذلون جهدهم في نشر باطلهم وتوهين السنة وتعطيل العمل بالشرعية والتنكيل بأهل الإسلام.

قال الشاطبي: (وأول شاهد عليه في الواقع - يعني الافتراق والعداوة - قصة الخوارج إذ عادوا أهل الإسلام حتى صاروا يقتلونهم ويدعون الكفار... ثم يليهم كل من ابتدع بدعة فإن من شأنهم أن يثبطوا الناس عن اتباع الشرعية، ويذمونهم، ويزعمون أنهم الأرجاس والأنجاس...)^(٢).

(ب) أثره في هدم النظام الأسري:

الأسرة هي اللبنة الأولى في النظام الاجتماعي، وصلاح الأسرة صلاح

(١) الاعتصام ١/ ١٤٩.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٤٩.

للمجتمع، وفساد الأسرة فساد للمجتمع، وقد كان للإلحاد آثاره المدمرة للأسرة؛ وذلك أن دين الإسلام جاء بما يوافق الفطرة البشرية، من ضرورة تكوين الأسرة بعقد بين رجل وامرأة لتحقيق غايات نبيلة، منها: قضاء الشهوة بطريق مشروع نظيف، والاقتصار على عدد معين من الزوجات، وعدم الالتفات إلى غيرهن من خدينات وخليلات وخليلات.

وفي شرع الزواج من المصالح أيضاً: غض البصر عن المحرمات، وسكون الروح، وطمأنينة النفس، وحصول المودة والرحمة بين الطرفين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ (الروم).

وقال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج»^(١).

ومن مصالح الزواج العظيمة أيضاً:

حفظ النسل، وتكاثر النوع الإنساني، لتكوين المجتمع البشري، لعبادة الله وحده لا شريك له، وإقامة شريعته، وعمارة الكون، وإصلاح الأرض، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١). وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٤).

وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بتكثير النسل عن طريق الزواج المشروع، فقال: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»^(٢). فتكثير النسل، وصلاحه، واستقامته، وتنشئته ليكون صالحاً مصلحاً في هذه

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠٦٥، ومسلم رقم ١٤٠٠.

(٢) رواه الإمام أحمد، برقم (١٢٦١٣) وغيره.

الأرض، وقرّة عين لوالديه، وذكراً طيباً لهما بعد وفاتها مطلب شرعي، ولذا كان من دعاء عباد الله الصالحين: ﴿بَّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: ٣٨).

ومن مصالح الزواج: حفظ الإعراض، وصيانة الأنساب؛ ولذا حرمت الشريعة الزنا ووسائله، وأوجبت الغيرة على المحارم والزوجات، وأن ذلك من كمال الرجولة، وأحسن الخصال.

وبالزواج تلتحم الحياة بين الأسر من الأقارب والأصهار، وفي ذلك من التعاون والتناصر والترابط وتبادل المنافع في المجتمع ما لا يمكن حصره .

ولهذه المصالح والحكم وغيرها نهت الشريعة عن التبتل وترك الزواج، وأن ذلك مذموم شرعاً، ومضاد للفطرة التي فطر الله الجنسين عليها، فقد ثبت عن النبي ﷺ في (الصحيحين) وغيرهما أنه قال منكرأ على من ترك الزواج، أو الفطر، أو النوم لأجل العبادة، قال: «أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

هذه هي قاعدة الزواج التي يقوم عليها المجتمع السليم، والتي دعت إليها الفطرة، وقررتها الشريعة.

وفي ظل الإلحاد المعاصر لا ترى هؤلاء يُعَنون بالدعوة إلى هذا الأصل الأصيل، ولا بالمحافظة على هذه اللبنة، بل الأمر بعكس ذلك من الدعوة إلى فتح أبواب العلاقات الجنسية بين الذكور والإناث بدون زواج، والتشجيع على ممارسة أشكال الإغراء بين الطرفين، ومحاولة إبعاد المجتمع عن تحقيق العلاقة الأسرية النظيفة بأساليب متعددة، بتقبيح الزواج المبكر، وافتراس المعوقات في الزواج، والحث على إيجاد فرص الدراسات والأعمال التي تشغل

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠٦٣، ومسلم رقم ١٤٠١.

عن هذا المقصد الفطري، ومحاولة إشاعة قضية تحرير المرأة في كل مجتمع، وفي كل وقت لأجل أن تتمرد المرأة على زوجها، وعلى أبيها وعلى أسرتها، وبذلك تفسد الأسرة، ويفسد المجتمع بعد ذلك، فلا ترى المرأة عليها حقاً لزواج ولا لأب، وكذلك الأولاد لا يرون حقاً ولا حرمة لأبائهم ولا لأماتهم، وتصبح الحياة مجرد بحث عن لذات وشهوات جنسية، حتى أصبحت كثير من المجتمعات أشبه بقطعان حيوانية، وهذا ما يسعى إليه الملحدون، وفي كل يوم يبوح هؤلاء الملحدون بأنواع جديدة من مخالفات الفطرة والشريعة لإفساد النظام الأسري، كالزواج المثلي، وعدم اعتراف المرأة بقوامة الرجل، وعدم حق تربية الوالدين لأولادهم بدعوى العنف ... إلخ.

فهذه الدعوات الإلحادية خروج عن شريعة الإسلام ودعوة لأخذ الأسباب التي تقضي على المجتمع بالفساد أفراداً وأسرةً كإباحة العلاقات الجنسية ومقدماتها بين الجنسين، وتحريض المرأة على التبرج والاختلاط ومزاحمة الرجال في الأعمال، وتحقير قرارها في بيتها وعملها لأجل سعادة زوجها وأولادها وغير ذلك مما سبق ذكر آنفاً.

ومقصودهم من ذلك كله في مؤتمراتهم واجتماعاتهم وكتاباتهم وقنواتهم الإعلامية محادة الله ورسوله ﷺ، ومناقضة الشريعة الإسلامية فيما شرعته من الأحكام التي فيها مصالح، البشر وذلك لأنهم من جنود إبليس ودعاته الذين قال الله عنهم: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْئِيْنَهُمْ فَلْيُبَيِّنَنَّ أَدَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا يَمُرَّحَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)﴾ (النساء) (١).

(١) ينظر: إحياء علوم الدين ٢/ ٢٢، وما بعدها، وبدائع الفوائد لابن القيم ٣/ ١٠٩٧-١٠٩٨، وحراسة الفضيلة للشيخ بكر أبو زيد ص ٩٩، والإلحاد للشيخ عبدالرحمن بن الخالق ص ٢٤.

(ج) أثره في: تسلط الأعداء وسقوط الدول:

قضى الله تعالى وكتب: أن الإيمان به وبرسوله ﷺ والجهاد عن دينه سبب لخير الدنيا والآخرة، وبالعكس: البدع والإلحاد ومخالفة ما جاء به الرسول ﷺ سبب لشر الدنيا والآخرة^(١). ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُمْ صَوَامِعَ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ (الحج).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥)

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم أظهرها كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم الله تأييداً عظيماً، وتحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم)^(٢).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦).

قال ابن القيم في (بدائع الفوائد) ما نصه: قال أكثر المفسرين: (لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدُّعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله، إياها ببعث الرُّسل، وبيان الشريعة، والدُّعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله، والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظمُ فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة، إنما هو بالشُّرك به هو

(١) ينظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/١٧٩.

(٢) ١٠/٢٦٨.

أعظمُ فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشِّرك به ومخالفة أمره^(١).

وبالجملة فالشُّرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسوله هو أعظمُ الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شرعه فلا سمع له ولا طاعة، فالله تعالى أصلح الأرض برسوله ودينه، وبالأمر بتوحيده، ونهى عباده عن إفسادها بالشُّرك به، وبمخالفة رسوله.

ومن تدبّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض سببه توحيد الله، وعبادته، وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وقحط وتسليط عدو وغير ذلك سببه مخالفة الرسول ﷺ، والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبّر هذا حق التدبّر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وجد هذا الأمر كذلك في خاصّة نفسه، وفي حق غيره عموماً وخصوصاً، ولا حول قوّة إلا بالله.

والمقصود: أن القيام بدين الله وأمره من فعل الطاعات، واجتناب المحرمات، والدفاع عن دينه باللسان والسنان، وتنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها، ممن يطعنون في دين الله، ويتعدون حدوده، ويقعون فيما حرم الله، سواء من سائر المعاصي، أو أنواع الإلحاد والزندقة، كل ذلك مما يحفظ الله به المجتمعات والدول، ويزيدهم به تمكيناً وثباتاً، وقوة، ونصرة على أعدائه، والعكس صحيح، فإن التساهل بأمر الله ودينه، وتعطيل العقوبات الشرعية، وعدم تعظيم الله ورسوله ﷺ كل ذلك مؤذن بزوال الدول، وتسليط الأعداء، وخراب الأرض بعد إصلاحها^(٢).

(١) ٣ / ٨٥٦.

(٢) انظر لتفصيل ذلك: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣ / ١٧٧ - ١٨٢، وينظر في هذا كتاب: الانحرافات العقيدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين لعلي الزهراني.

(د) أثره في: الإجرام السياسي العالمي:

إن من أعظم آثار الإلحاد آثاره في السياسة العالمية، ونظام العلاقات بين الدول، وذلك أن الأخلاق المادية الإلحادية التي جعلت قلب الإنسان يمتلئ بالقسوة والأنانية دفعت الإنسان إلى تطبيق هذه القسوة والأنانية في مجال العلاقات السياسية العالمية أيضاً؛ ولذلك لجأت الدول الاستعمارية الكبرى إلى وسائل خسيصة في استعباد الشعوب الضعيفة، والحصول على خيراتها، ونهب ثروتها، ومنها: البلاد الإسلامية والعربية، وإذا ظهر صوت ينادي بالإسلام والرجوع إلى أحكامه أسرع إليه سهام الإلحاد والضلال بالاتهامات بالرجعية، والوحشية... إلخ وهكذا يصطلي العالم بنار المادية الأنانية العالمية التي تمارسها الدول الكبرى التي تقوم على الاستعباد، والفوضى، والاختلاف حتى يسهل عليهم استلاب خيراتها، وسرقة ثروتها.

«ولو كان الإيمان والتوحيد وخوف الله هو المسيطر على أخلاق الذين يملكون سياسة الدول لعمت الرحمة والإحسان بين الشعوب، وكانت نصرة الضعفاء، وإعانة المساكين، ورفع الظلم عن المظلومين هو المنهج الذي تسير عليه السياسات العالمية».

«والخوف كل الخوف بعد ذلك: أن يتسبب الإلحاد في تدمير العالم أجمع، وذلك بعد أن وضع العلم الحديث في يد الإنسان أسلحة تستطيع تدمير العالم أجمع».

«ومن يشاهد الآن ما تلجأ إليه الدول الكبرى لتدمير الشعوب الصغيرة يجد عجباً، فهذه الدول تستخدم أسلحة رهيبية جداً لذلك، كالمخدرات، والدعاية السوداء، والحرب النفسية، والنساء، وتربية العملاء، وكذلك القتل، والتشريد لكل العناصر الطيبة المخلصة لأوطانها وأمتها».

«وهكذا استطاع الإلحاد والبعد عن الله سبحانه وتعالى أن يحول المجتمع الإنساني كله إلى مجتمع بغيض جداً، يقوم على الظلم، والقهر، والنهب، والخوف

الدائم، من الدمار، والخراب، وهذا يؤدي إلى تدمير نفس الإنسان المعاصر، وهروبه الدائم من واقعه، ولذلك انتشرت المخدرات والمهدئات، والإغراق الجنسي، وكذلك دفعت هذه السياسات العالمية الفرد إلى مزيد من الأنانية، وحب الذات، والحرص على المال بكل سبيل، وطلب النجاة لنفسه فحسب، والعيش ليومه فقط، وهكذا نتج من الإلحاد الدوامية المعاصرة التي تلف الإنسان في عصره الراهن؛ عصر القلق، والأنانية، والإجرام، والفوضى»^(١).

هذه جملة من الآثار السيئة على المجتمع بسبب الإلحاد والملحدين، سواء كان الإلحاد بإنكار ربوبية الله جل وعلا، أو كان غير ذلك.

والواجب على جميع المسلمين أفراداً وجماعات: العمل على محاربة هذه الآثار، وما بنيت عليه من أفكار باطلة بالأساليب المناسبة لكل حال، كما يجب على ولاية الأمور حماية أهل الإسلام من التأثير بتلك الأفكار الإلحادية، وإقامة أحكام الشريعة فيمن يتبنى، ويدعو إليها بين المسلمين، وهذا من أوجب الواجبات، وأعظم حقوق الله على عباده.

ويمكن إجمال آثار الانحراف في الأقسام التالية:

* أولاً: في الجوانب الفكرية والعقدية:

- إدخال أصول وعبادات ليست من شرع الله تعالى، وقد أدى ذلك إلى اهتمام الناس بالبدع والمحدثات التي أدت إلى ضعف المجتمع الإسلامي وافتراقه وانتشار مساوئ الأخلاق.

- تشويه الفكر الإسلامي، وتهميش قيمته، وتمجيد الغرب وفكره المنحرف على المستوى الداخلي والخارجي.

- ظهور فكرة تقارب الأديان وانصهارها معا، حيث ساهم الانحراف الفكري في إلغاء الفوارق العقائدية بين الأديان، والدعوة إلى السلام والوفاق، وهذا

(١) ينظر: الإلحاد، للشيخ عبدالرحمن بن عبدالحق باختصار وتصرف يسير ص ٢٩-٣١.

يعارض قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

- انتشار الوثنية والشرك وفعل المنكرات والمحرمات والإلحاد في الدين، حيث
يُعد هذا الأثر من الآثار الواضحة والمنتشرة في البلاد الإسلامية.

- التأثير على التعليم والإعلام واللغة والأدب الإسلامي، حيث تُعد هذه الأمور
من الأسس التي تعتمد عليها الأمم في ثقافتها.

- استغلال العولمة لنشر الثقافة الغربية وعولمتها، حيث استثمر الغرب أدوات
العولمة كالإعلام المرئي المتمثل في القنوات الفضائية وغيرها أو المسموع،
وكذلك أدوات الاتصال الحديثة ومن أهمها الإنترنت، وذلك لأجل تزويد
الهوية الخصوصية للعالم الإسلامي.

* ثانياً: في الجوانب الأخلاقية:

- اقتراف الفساد الخلقي من قبل أهل الانحراف كشرب الخمر وتعاطي
المخدرات وفعل الفواحش.

- انتشار جرائم القتل والاعتداء على الأنفس والأموال المعصومة.

- انهيار الأخلاق وتفسخ الأسرة، فقد حرص أعداء الإسلام على تفتيت العلاقة
الإنسانية وتزويد أواصرها المعنوية من خلال إفسادها أخلاقياً والتأثير على
سلوكها الاجتماعي في الحياة.

* ثالثاً: في الجوانب الاجتماعية:

- افتراق الأمة واختلاف كلمتها، مما يؤدي لضعفها وتهالكها، وهذه الغاية التي
يسعى لها أعداء الإسلام ليتمكنوا منها.

- اهتزاز الأمن في حياة الناس، والذي يؤثر على مختلف جوانب الحياة.

- التأثير على الأسرة المسلمة، فأعداء الإسلام يحاولون صبغ المجتمعات
الإسلامية بالصبغة الغربية والقضاء على صورة الأسرة المسلمة، وسحب
صفات الأسرة الغربية عليها.

- إثارة الفتن بالفكر المنحرف يسعى دائماً إلى إثارة الجدل والفتن بما يحويه
ويطرحه من مسائل خلافية جدلية لم يستقر عليها رأي، ولم يتفق عليها اتجاه،
فتتسع دائرة الخلاف، وتضيق دائرة الاتفاق بين الأفراد والجماعات، وينعكس
كل ذلك على استقرار المجتمع، ومن ثم على استقرار الأمة.
- انتهاك حقوق الغير بالاعتداء على ممتلكاتهم أو حرياتهم أو ذواتهم بدون مسوغ
شرعي.

* رابعاً: في الجوانب الاقتصادية والسياسية:

- إشاعة الفوضى والاضطراب في الدولة مما يؤدي لتصدعها وانحيار بنيانها.
- استغلال وامتصاص ثروات بلاد المسلمين ومواردهم ...
- إقصاء الشرع عن الجانب الاقتصادي والسياسي فيتم ذلك من خلال الطرح
العلماني المنحرف الذي جعل الدين في دور العبادة فقط.
تلك أهم الآثار التي خلفتها الانحرافات العقدية في البلاد الإسلامية^(١).
* العلاج:

تبين مما قدمنا أن الانحراف خطر عظيم يتهدد حاضر الأمة ومستقبلها
الصالح منها والمنحرف، ومن هنا فإن هذا الخطر يستوجب على الحكومات
ومؤسسات الدولة أن تقوم بمسؤولياتها تجاهه لعلاجها، وذلك على المحاور
الآتية:

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلها ثقافة مجتمع:

قرر الإسلام مسؤولية المجتمع - بوصفه كياناً واحداً - عما يُحدثه أفراد من
انحرافات، وجعل مقاومة هذه الانحرافات فرضاً مؤكداً، بل أصلاً من أصول
الدين، وجعل لذلك كله عنواناً جامعاً هو «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؛

(١) ينظر: محمد بن راجس الدوسري: الأساليب الوقائية من الانحراف الفكري لدى طلاب المرحلتين المتوسطة والثانوية (أطروحة ماجستير) ص ٤٤، وما بعدها.

قال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وصَوَّرَ النبي ﷺ أفراد المجتمع الواحد بركاب السفينة الواحدة فقال ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقُوا الْمَاءَ مَرَوْا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا لَمْ نُوذْ مِنْ فَوْقِنَا فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا»^(١).

ومن هذا الحديث وغيره من النصوص يتضح أن عقوبة الانحراف الاجتماعي لا تقتصر على مرتكبيها وحدهم، بل تمتد لتشمل أفراد المجتمع كافة؛ لأنه - كما صوره رسول الله ﷺ - كيان واحد، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٥).

ويقول ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»^(٢).

والحق أن الوقاية من الانحراف قبل وقوعه، وكذا علاجه بعد وقوعه هي مهمة مشتركة تقع على كثير من جهات المجتمع، وعلى ولي الأمر أيضاً. فهي مهمة تقع على ولي الأمر بتخصيص الجهات العلمية والتربوية والإعلامية والنفسية التي تعنى برصد أسباب الانحراف ودوافعه، وتحرص على علاج هذه الأسباب ومواجهة الدوافع.

وهي مهمة المسجد والمدرسة أيضاً بنشر العلم الصحيح المستمد من الكتاب وصحيح السنة، ومشارب هذه الأمة الإسلامية، ووضع المناهج التعليمية الصحيحة المستمدة من هذه المشارب النقية.

(١) رواه البخاري في صحيحه، رقم ٢٤٩٣.

(٢) رواه الترمذي في السنن، رقم ٢١٦٩.

وهو دور أهل العلم في كل مكان من أرض الإسلام بإعلان الحق وبيان الصواب، وإنكار المنكر، وبيان ما يعبر عن دين الإسلام، ويكشف زيغ الانحراف ويواجهون بالنقاش والمناظرة دعاة الإلحاد والعلمانية والعقلانية وغيرها من المذاهب الهدامة في لقاءات معلنة ليظهر الحق للناس. وهو دور الأسرة في المنزل، هو دور الوالدين ورموز المجتمع بالتزام الدين قوياً دون إفراط أو تفريط.

(٢) الاهتمام بقطاع الشباب وامتصاص طاقاتهم العملية العقديّة والفكرية: يجب الاهتمام بالشباب، فهم عماد الأمة وقوتها الدافعة الحيوية، وتوجيه طاقاتهم العملية العقديّة والفكرية فيما يعود بالنفع عليهم وعلى الأمة، والمجالات في هذا كثيرة ومتعددة، منها تسهيل انخراطهم في العمل التطوعي، والاستماع لآرائهم، والتعرف على مشكلاتهم ومصاعبهم واحتياجاتهم، وتقديم القدوة الصالحة لهم.

(٣) نشر العلم الشرعي، وإنارة الوعي العقدي والفكري: بنشر المطبوعات، والتسجيلات، والمؤتمرات، والمحاضرات، واللقاءات المباشرة بالناس، وكذلك أيضاً استغلال المتاح من التقنية المعاصرة بالتأثير على أكبر قدر من المخاطبين، وبخاصة قطاع الشباب، وإقامة الدورات الفكرية الشرعية المفتوحة والمنتديات.

(٤) فتح باب الحوار عبر الوسائل التقنية الحديثة: وذلك للإجابة على أسئلة السائلين، وبخاصة من الشباب والحائرين، قبل أن تنتقل بهم هذه الأسئلة لما هو أسوأ، مع الترفق بهم والصبر عليهم، وتقريب المفاهيم إليهم، والتواصل معهم للأخذ بأيديهم إلى شاطئ النجاة وطريق السلامة.

(٥) مواجهة الإعلام المنحرف وتقديم إعلام نظيف بناء: ضرورة لجم الإعلام المنحرف بحسب الطاقة، والنأي به عن أن يكون أداة

دمار للأمة وشبابها، ووسيلة إفساد بمادته الإخبارية والترفيهية، وتقديم إعلام نظيف بنّاء؛ يقوم على الصدق والنقاء، وسلامة الاعتقاد، وحقيقة الرؤية، والتصوير الإسلامي، ليجتذب الأمة وينير سبيلها، ويربط على قلوبها، ويصحح انحرافها ويأخذ بأيديها.

(٦) التوعية بخطر الأسفار:

توعية الشباب بخطر السفر لبلاد الكفار من غير ضرورة، مع التنبيه على أهمية الاعتصام بجماعة المسلمين هناك - لمن اضطرته الحاجة للسفر إليها - والابتعاد عن مخالطة الفجار من الكفار، والبعد عن مواطن الفتن والرديلة، مع ضرورة المواظبة على الصلوات والأوراد والأذكار في أوقاتها، وكثرة الذكر والدعاء والاستغفار، والحرص على العود لبلاده حالما انقضت ضرورة السفر أو حاجته.

وبهذه السبل يمكن الوقاية من الانحراف، وتقويم المنحرف، وإيجاد جو وبيئة ومجتمع نظيف وطاهر من أدران الإلحاد والكفر، والمعاصي بكل صورها وأنماطها.

أبيض

الخاتمة

في ختام بحثنا هذا نتبين أن:

أولاً: نتائج البحث:

- الإسلام دين عظيم شامل يحترم العقل لكنه يضعه في موضعه الصحيح فلا يجاوز مقام الشريعة، ولا يستعلي على حكم الله.
- الأفراد والمجتمعات معرضون للانحراف إذا أهملت أسباب الوقاية منه ومن دفعه إذا وقع.
- الانحراف دركات ومزالق، تبدأ بالعقلانية، وتنتهي بالإلحاد، وبينهما مهاوٍ ومهالك.
- للانحراف معايير تختلف باختلاف أصول المجتمع ومصادره، ومعايير مجتمعا الإسلامي مستمدة من الكتاب والسنة الصحيحة، وبفهم السلف الصالح.
- آثار الإلحاد على الأمة والمجتمع شديدة الضرر، تبدأ من رفض الوحي مصدراً للتلقي، مروراً برفض الاعتقاد بمعصوميته، ... إلى غير ذلك.
- من آثار الإلحاد فساد الفطرة، وهو ما يؤدي إلى فساد البيئة والمجتمع والمعاملات وانتشار الجريمة، وسقوط الأخلاق، واحتجاب السعادة عن الناس.

ثانياً: التوصيات:

توصي الدراسة بما يأتي:

- يجب أن تتيقظ الأمة قيادة وشعباً إلى خطر الانحراف والإلحاد، الذي غرر بكثيرين من أولادنا فأفسد قلوبهم؛ «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله» حديث صحيح.
- يجب على أولياء الأمور في العالم الإسلامي وقيادات دوله أن يتخذوا جميع السبل الممكنة لسد أبواب الانحراف والإلحاد (وقد ذكرنا منها في بحثنا هذا الكثير).

- على المجتمع بجميع فروع ومؤسسات أن يضطلع كل منهم بدوره لمواجهة الإلحاد.
- على أهل العلم والمتخصصين أن يهتموا بعقد المناظرات العلنية في مواجهة أئمة الإلحاد ورؤوسه والرد عليهم على رؤوس الأشهاد.
- يجب الاهتمام بإقامة إعلام قوي، كما قلنا ونقول، تستغل فيه التقنية بإمكاناتها الكثيرة والمؤثرة في عالم اليوم.
- وبالله التوفيق.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
- وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.